

رواية تتفوق على كاتبها

نادرًا ما تجد روائيا لم يقرأ رواية دون كيختوتي (التي تسمى أيضًا دون كيشوت)، والأأندر منه أن تجد منهم من لم يسمع بها. إلا أن كاتبها ورغم شهرته في بلاده، إلا أنه بقي أقل شهرة من روايته، إلى أن تم تكريمه بعد وفاته بعده طرق. إنه (ميغل دي ثيربانتس) الكاتب والروائي الإسباني الذي توفي قبل أكثر من أربعين عاماً. ويوازي ثيربانتس في شهرته في إسبانيا شكسبير في بريطانيا، إلا أن المفارقة أنه عندما يكون الحديث عن خارج وطنهما، فإن الكثيرين يعرفون شكسبير لكنهم قد لا يتذكرون اسم أحد أعماله، بينما نلحظ العكس في الثاني حيث يعرف الكثيرون رواية دون كيشوت دون معرفة اسم مؤلفها.

وقد بلغ من جمال هذه الرواية وحلوتها فكرتها وحجم السخرية الذي اكتسست به أن أصبحت الشخصية الأساسية فيها مصطلحا يتم إطلاقه على الأشخاص الذين يشبهونه وهو الدونكيشوتية. ويعني هذا المصطلح السلوك المبني على حلم غير قابل للتحقق، وهو السلوك الذي اصطبغت به شخصية دون كيشوت في الرواية. فهذا الشخص الذي تميز بحبه للكتب القراءة انكب على قراءة مجموعة كبيرة من الكتب أغلبها يتحدث عن الفروسية والبطولة ودورها في بروز أي شخصية آنذاك. وقد تأثر دون كيشوت - الذي كان اسمه ألونسو كيكسانو لكنه أعطى لنفسه هذا الاسم لاعتقاده بفخامتها وتناسبه مع شخصيته الجديدة - تأثر بما قرأه وتحول إلى شخص يهوى الفروسية وإحقاق الحق. وهكذا وجد لنفسه حمانا هزيلا وامتشق عصاة غليطة بدل السيف ووضع على رأسه خوذة من نحاس عادي لكي يصبح في نظر نفسه فارسا مغوارا، بمعية شخص آخر يساعدته مع حمار يمتطيه. وعندما بدأ مشواره البطولي واجه عدداً من طواحين الهواء الصخمة التي تخيلها تنانين ت يريد تدمير كل شيء، فقام بمهاجمتها وتخيل أنه انتصر عليها. وتتوالى أحداث الرواية الشائقة التي تدور أحداثها حول معارك وهمية أو تافهة يقوم بها بطلها ولا يحقق منها أي نتيجة سوى عودته إلى مسقط رأسه ثم موته على السرير بدل تحقق أمنيته بأن يموت في إحدى المعارك الضارية.

وهكذا اشتهرت القصة وطبع منها ملايين النسخ بعدة لغات حتى تحول اسم بطلها إلى مصطلح خاص وهو الدونكيشوتية (quixotic)، ودخلت كمفيدة في قواميس اللغات الحية في العالم، بل وعقدت العديد

من الندوات والمحاضرات لمناقشة مفهوم اللطف . كما انسحب اللطف حتى على الجانب السياسي ليطلق على من تفوق طموحاته السياسية بكثير قدراته أنه يمارس الدونكيشوتية السياسية .

وقيل إن الروائي الروسي المعروف دوستويفسكي كان مسكوناً بشخصية دون كيشوت حيث قال عنه: لا يوجد في العالم كلّه لا يوجد مؤلّف أعمق وأقوى من هذا ، هذه هي الكلمة الأخيرة والأسمى لل الفكر الإنساني ، إنها أكثر أنواع السخرية التي يمكن للإنسان التعبير عنها مرارة . ووصل الحال بأحد الروائيين من الإكوادور (خوان مونتالفو) أن استعار شخصية دون كيشوت في رواية أسمها (فصول من دون كيشوت نسيها ثيريانتس) ، وذلك لأن دون كيشوت أصبح شخصية إنسانية ولا تخمن كاتبها لوحده .